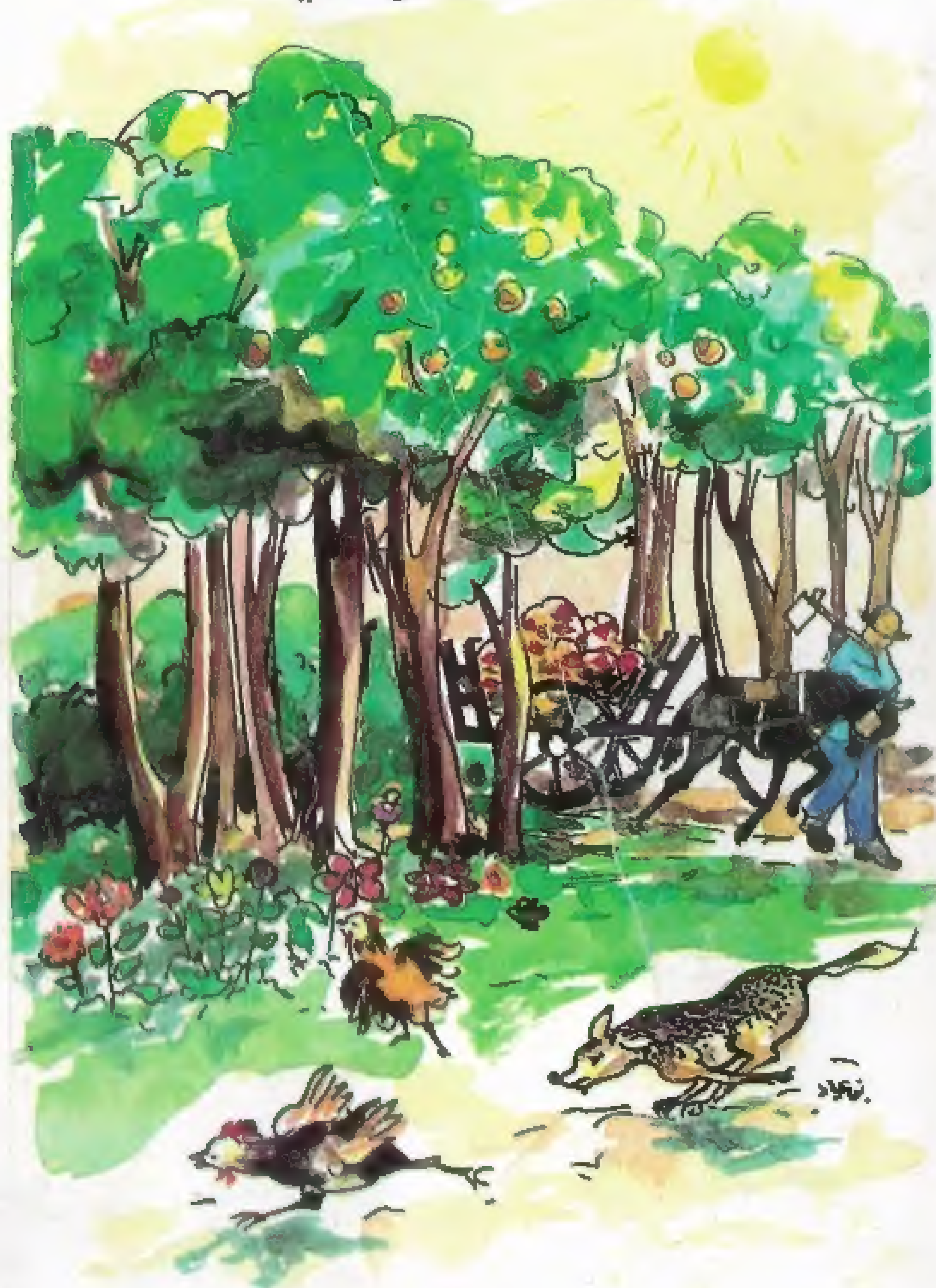
البيئة نبع الحياة

محمد الفاضل سليمان



دار البيروني للنشر والتوزيع

البيئة نبع الحياة

تأليف :

محمد الفاضل سليمان

الكتاب : البيئة نبع الحياة.

المؤلّف : محمّد الفاضل سليمان.

الطّبعة : الأولى.

السّحب : 5 000 نسخة .

الحقوق : محفوظة لدار البيروني للنّشر
56 نهج داق همرشولد 3000 صفاقس.

د.د.م.ك. 9973-956-04-5 الثمن: 1,100

زَهْرَةُ القُرَى، اسْم" جَمِيل" لِقَرْيَةٍ سَاحِلِيّةٍ بَاسِمَةٍ، تَفِيضُ فِيهَا بَدَائِعُ الْخَيْرَاتِ وَأَجْمَلُ البَرَكَاتِ ، تَتَوَسّطُهَا رِيَاض" نَضِرَة" فِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَ تَلَذّ الأَعْيُنُ مِنْ ثِمَارٍ ذَاتِ بَهْجَةٍ وَ أَزْهَارٍ تَفُوحُ شَذًى، تُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلّ جَانِبٍ دَوْحَات" عَالِيَة" وَخَمَائِلُ ظَلِيلَة"، تَنْسَابُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا جَدَاوِلُ وَأَنْهَار"، فَتُثْرِي التّرْبَةَ المِعْطَاءَ بِوَافِرِ الْخَيْرِ وَ النّمَاءِ.

اشْتَهَرَ سُكّانُهَا الفَلاّحُونَ وَ المَلاّحُونَ بِالجِدّ وَ المُثَابَرَةِ فِي الأَعْمَالِ ، مُتّخِذِينَ المُرُوءَةَ رَايَتَهُمْ وَ الْهِمَمَ العَالِيَةَ شِعَارَهُمْ مِمّا

جَعَلَ قَرْيَتَهُمْ الهَادِئَةَ قِبْلَةَ التُّجَارِ يَؤُمُّونَهَا مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَ صَوْبٍ لِيَجْلِبُوا مِنهَا مُخْتَلَفَ المَنْتُوجَاتِ وَ المَحْصُولاَتِ الزِّرَاعِيَّةِ كَمَا خَصَّصَ الأَهَالِي مَسَاحَاتٍ شَاسِعَةً لِلرَّعْيِ وَتَرْبِيَةِ ٱلأَبْقَارِ وَ ٱلأَغْنَامِ وَ ٱلدَّوَاجِنِ.

وَوَجَدَتْ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ ٱلْمَرْتَعَ الْخِصْبَ لَهَا فَنَمَتْ وَتَكَاثَرَتْ وَأَشْبَعَتِ السُّكَّانَ خَيْرًا وَثَرَاءً.

وَلَكِنْ كَمَا يُقَالُ : «عُمْرُ الزُّهُورِ وَ إِنْ طَالَ قَصِيرٌ".»

فَقَدْ قَلَبَ لَهُم الدَّهْرُ ظَهْرَ الْمِجَنِّ وَ عَرَفَتْ بَعْضُ الذِّئَابِ والثَّعَالِبِ طَرِيقَهَا إِلَى القَرْيَةِ.

وَظَلَّتْ تَزُورُهَا مِنْ حِينٍ لآخَرَ فَتَفْتِكُ بِالمَوَاشِي.

تَذَمَّرَالسُّكَّانُ مِنْ هَذا الْخَطَرِ الْمُفَاجِئِ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ فَخَصَّصُوا بَعْضَ الْحُرَّاسِ الْمُسَلَّحِينَ لِمُدَاهَمَتِهَا لَيْلاً ونَهَارًا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا لأَنَّ الأَشْجَارَ الْكَثِيفَةَ والدَّوْحَاتِ الْعَالِيَةَ حَالَتْ دُونَ رُؤْيَتِهَا وَ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا.

فَاجْتَمَعَ المُتَسَاكِنُونَ وَتَدَارَسُوا المَوْقِفَ وَاتَّفَقُوا عَلَى رَشِّ الْجَدَاوِلِ الَّتِي تَرْتَوِي مِنْهَا السِّبَاعُ بِمُبِيدَاتٍ كِيمِيَاوِيَّةٍ سَامَّةٍ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا نِهَائِيًّا.

وَ عَارَضَ هَذَا الْقَرَارَ رَجُل" وُصِفَ بِالرَّصَانَةِ وَبُعْدِ النَّظَرِ يُدْعَى إِيَّاس"



فَقَدْ حَذَّرَ الأَهَالِي مِنْ مَخَاطِرِ اُسْتِعْمَالِ اَلْمُبِيدَاتِ، مُؤَكِّدًا لَهُمْ أَنَّ اَلْحَلَّ الأَنْسَبَ يَكْمُنُ فِي تَنْظِيمِ اَلْمَرَاعِي وَ جَعْلِهَا دَاخِلَ مَنَاطِقَ مُسَيَّجَةٍ بَعِيدَةً عَنِ الأَشْجَارِ الغَابِيَّةِ ، وَنَادَى بِالإِقْلاَعِ عَنْ مُحَارَبَةِ اَلسِّبَاعِ لِأَنَّهَا تُسَاهِمُ فِي اَلْمُحَافَظَةِ عَلَى اَلتَّوَازُنِ اَلْبِيئِيِّ.

إِلاَّ أَنَّ السُّكَّانَ سَخِرُوا مِنْ آرَائِهِ قَائِلِينَ لَهُ : «لَمْ نَكُنْ نَعْهَدُكَ تَنْطِقُ بِهَذَا الهُرَاءِ!» ثُمَّ أَلْقَوْا بِكَمِّيَاتٍ وَافِرَةٍ مِنَ السُّمُومِ اَلْفَتَّاكَةِ فِي الْجَدَاوِلِ وَإِذَا بِهَا تَنْسَابُ فِي اَلأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ، فَتُسَبِّبُ تَلَوُّثًا بِيئِيًّا خَطِيرًا قَضَى عَلَى اَلثَّرَوَاتِ اَلنَّهْرِيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ مِنْ

أَسْمَاكٍ وَطَحَالِبَ وَرَخْوِيَّاتٍ. أَمَّا الذِّئَابُ فَلَمْ يَمُتْ مِنْهَا إلاَّ ٱلنَّزْرُ الْيَسِيرُ.

تَعَاظَمَتْ حَسْرَةُ ٱلأَهَالِي الَّذِينَ وَقَفُوا عَاجِزِينَ أَمَامَ هَجمَاتِ ٱلذِّئَابِ ٱلْمُتَكَرِّرَةِ فَأَمْسَوْا يُفَكِّرُونَ فِي الطَّرِيقَةِ ٱلْمُثْلَى الَّتِي يَسْتَطِيعُونَ بِوَاسِطَتِهَا التَّغَلُّبَ عَلَيْهَا.

وَأَخِيرًا اهْتَدَى شَابٌّ" إِلَى طَرِيقَةٍ جَهَنَّمِيَّةٍ سُرْعَانَ مَا نَالَتْ رِضَا الْجَمِيعِ، أَلاَ وَهِيَ إِتْلاَفُ الْغَابَاتِ ٱلَّتِي تُعْتَبَرُ ٱلْمَكْمَنَ ٱلْحَصِينَ وَالْمَلْجَأَ الْمَنِيعَ لِتِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ. وَعَبَثًا حَاوَلَ إِيَّاس" ثَنْيَهُمْ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ الإِجْرَامِيِّ ٱلشَّائِنِ، وَإِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّ ٱلْغَابَةَ هِيَ مِصْفَاةٌ"

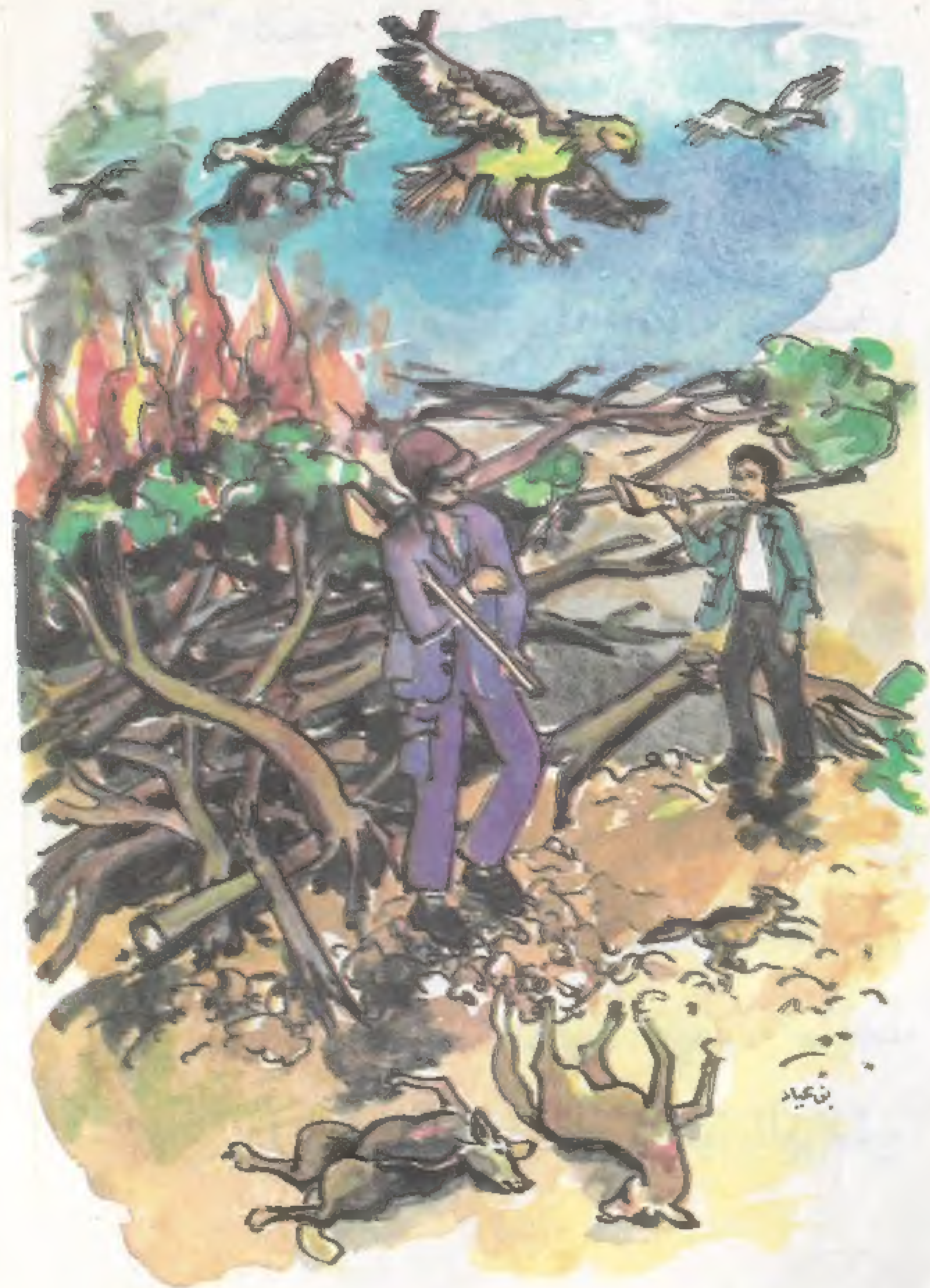
مُمْتَازَةٌ" لِتَنْقِيَةِ ٱلْهَوَاءِ مِنَ ٱلْغَازَاتِ ٱلسَّامَّةِ وَوَسِيلَةٌ" طَبِيعِيَّةٌ" لِجَلْبِ ٱلأَمْطَارِ وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى أَدِيمِ ٱلأَرْضِ. إلاَّ أَنَّ أَفْكَارَهُ لَقِيَتِ ٱلصُّدُودَ مِنْ قِبَلِ ٱلْجَمِيعِ. وَتَظَافَرَتْ جُهُودُ ٱلأَهَالِي فَقَطَعُوا ٱلْخَمَائِلَ ٱلْفَاتِنَةَ وَأَحْرَقُوا ٱلدَّوْحَاتِ ٱلْبَاسِقَةَ وَأَتْلَفُوا ٱلْمَزْرُوعَاتِ ٱلسَّاحِرَةَ.

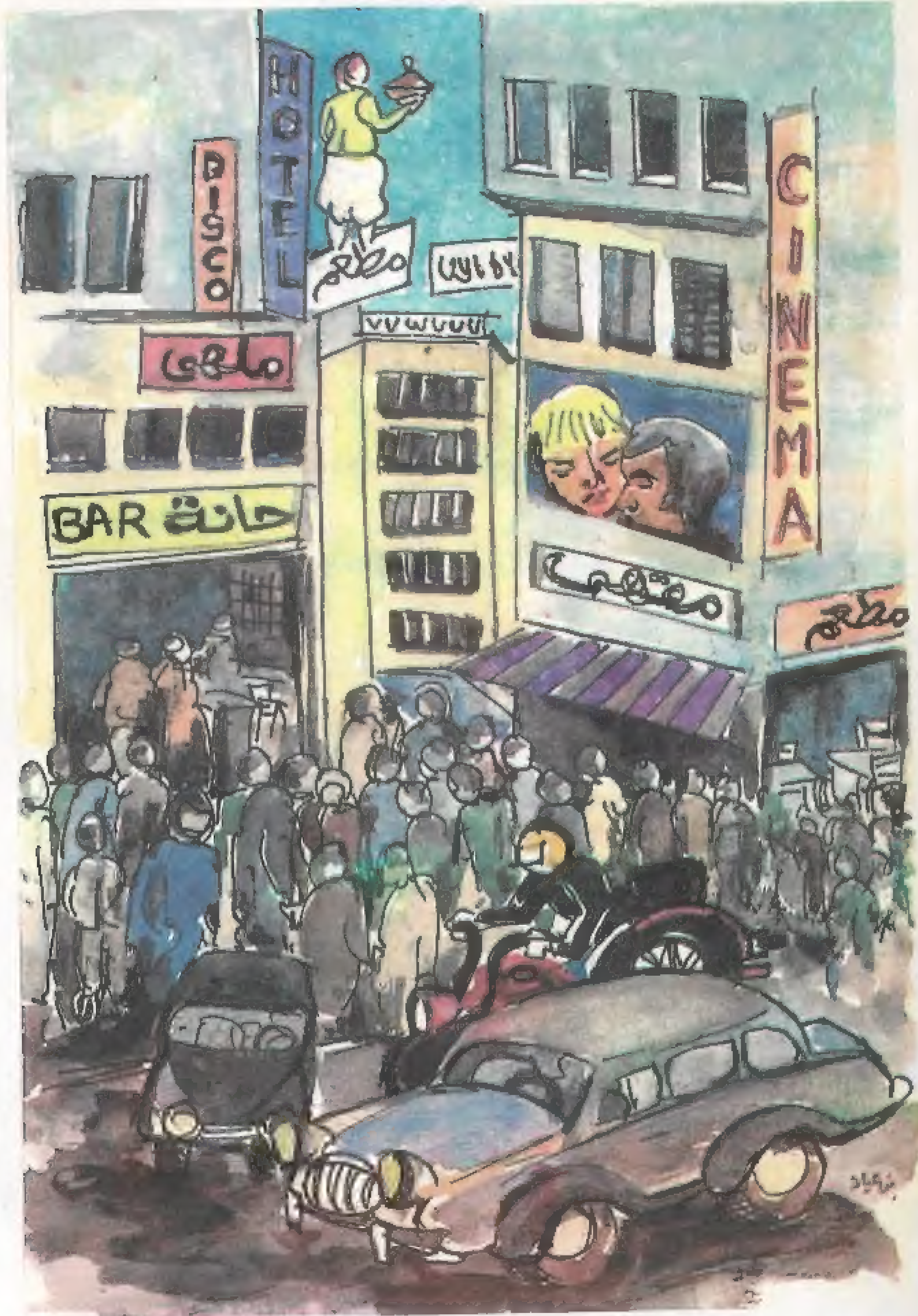
وَنَجَحَتْ خُطَّتُهُمْ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَأَصْبَحَتِ ٱلذِّئَابُ وَالثَّعَالِبُ وَٱلسِّبَاعُ ٱلأُخْرَى طَوْعَ بَنَانِهِمْ وَلُقْمَةً سَائِغَةً لِبَنَادِقِ ٱلصَّيَّادِينَ فَسُرْعَانَ مَا أُبِيدَتْ عَلَى آخِرِهَا، وَأَصْبَحَتْ جُثَثُهَا الْمُتَنَاثِرَةُ هُنَا وَهُنَاكَ طُعْمًا لِلْكَوَاسِرِ

اَلّتِي اِتّخَذَتْ مِنْ سَمَاءِ اَلْقَرْيَةِ مَقَرًّا دَائِمًا لَهَا، فَأَتَتْ عَلَى اَلْجُثَثِ أَوّلاً ثُمّ فَتَكَتْ بِمَا تَبَقّى مِنَ الدّجَاجِ وَالأَرَانِبِ وَتَرَكَتْ جَمِيعَ اَلْمَدَاجِنِ قَاعًا صَفْصَفًا.

وَهَكَذَا ذَبُلَتْ زَهْرَةُ القُرَى وَتَمَزّقَتْ أَوْصَالُهَا. شَعَرَ اَلأَهَالِي بِالْحُرْقَةِ وَالْخَيْبَةِ وَالنّدَمِ ، فَمَوَاشِيهِمْ وَأَسْمَاكُهُمْ اَلْبَحْرِيّةُ وَالنّهْرِيّةُ وَأَرَانِبُهُمْ وَدَجَاجُهُمْ وَغَابَاتُهُمْ الشّاسِعَةُ وَرِيَاضُهُمْ اَلْغَنّاءُ أَصْبَحَتْ هَبَاءً مَنْثُورًا.

وَاسْتَغَلّ بَعْضُ أَغْنِيَاءِ اَلْقَرْيَةِ هَذِهِ اَلْحَالَةَ اَلْمُتَدَهْوِرَةَ لِلْفَلاّحِينَ فَاقْتَنَوْا مِنْهُمْ أَرَاضِيهِمْ بِأَبْخَسِ اَلأَثْمَانِ، وَبَنَوْا مَكَانَهَا مَنَازِلَ





وَعِمَارَاتٍ وَنُزُلاً وَأسْوَاقًا وَمَتَاجِرَ وَدُورًا
لِلسّينمَا وَمَلاَهِي لِلشّبَابِ ثُمّ قَرّرُوا إبْدَال
اسْمَ قَرْيَتِهِمْ بِزَهْرَةِ ٱلمَدَائِنِ.

سُرّ ٱلجَمِيعُ بِهَذا ٱلتّحَوّلِ ٱلجِذْرِيّ لِقَرْيَتِهِمْ
وَبَهَرَتْهُمْ أشِعّةُ ٱلحَيَاةِ ٱلمَدَنِيّةِ فَظَلّوا
يَقْضُونَ جُلّ أوْقَاتِهِمْ فِي ٱللّهْوِ وَٱلرّقْصِ
وَٱلغِنَاءِ نَاسِينَ تُرْبَتَهُمْ ٱلمِعْطَاءَ ٱلّتِي
أغْدَقَتْ عَلَيْهِمْ سَابِقًا بِخَيْرَاتِهَا ٱلوَفِيرَةِ
فَجَازَوْهَا بِٱلحَرْقِ وَٱلتّدْمِيرِ وَٱلإهْمَالِ.

وَكَانَ "إيّاس" يَرْقُبُ كُلّ هَذَا بِعَيْنٍ دَامِيَةٍ
وَقَلْبٍ يَتَمَزّقُ أسًى وَحَسْرَةً لأنّ ٱلأشْجَارَ
ٱلّتِي فَنِيَتْ قُوَاهُ فِي غِرَاسَتِهَا أمْسَتْ رُكَامًا... ـ ـ ـ

وَٱلحَدَائِقَ ٱلبَاسِمَةَ الّتِي كَانَتْ تَسْتَقْبِلُهُ كُلّ صَبَاحٍ بِأَرِيجِهَا ٱلمِعْطَارِ وَنَسِيمِهَا ٱلْعَلِيلِ حَلّتْ مَحَلّهَا نَوَادٍ وَمَلاَهٍ تَصْدُرُ مِنْهَا أَصْوَاتٌ صَاخِبَةٌ تُقْلِقُ رَاحَتَهُ ، وَكُلّمَا هَمّ بِنُصْحِهِمْ نَعَتُوهُ بِٱلرّجْعِيّةِ، مُؤَكّدِينَ لَهُ أَنّ ذَلِكَ مِنْ دِعَامَةِ الحَيَاةِ ٱلْحَضَارِيّةِ. فَتَرَكَ لَهُمْ مَدِينَتَهُمْ المُزَيّفَةَ وَهَاجَرَ إِلَى حَيْثُ لاَ يَدْرِي أَحَدٌ.

مَرّتْ سَنَوَاتٌ اِزْدَادَ فِيهَا ٱلأَغْنِيَاءُ ثَرَاءً وَالفَلاّحُونَ فَقْرًا، وَبَدَأَتْ مُدّخَرَاتُهُمْ مِنَ الزّيُوتِ وَٱلحُبُوبِ وَٱلمَؤُونَةِ وَٱلأَموالِ تَنْفَذُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ أَصْبَحُوا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنَ الهَلاَكِ أَوْ أَدْنَى.

وَبَدَأَتْ ٱلحَيْرَةُ تَعُمّ القُلُوبَ فَأَخَذُوا يَتَسَاءلُونَ : هَلْ أَنّ ٱلتّلَوّثَ ٱلْبِيئِيّ مُرْتَبِطٌ بِالتّطَوّرِ ؟ وَهَلْ أَنّ التّوَانِي وَالتّوَاكُلَ هُمَا شِعَارَا ٱلْمَدَنِيّةِ ٱلحَدِيثَةِ ؟ وَهَلْ أَنّ اِنْقِرَاضَ ٱلسّبَاعِ وَالكَوَاسِرِ وَالحَشَرَاتِ كَفِيلٌ بِنَشْرِ الطّمَأْنِينَةِ فِي القُلُوبِ ؟ وَهَلْ أَنّ ٱلتّوَسّعَ العُمْرَانِيّ عَلَى حِسَابِ ٱلْمَنَاطِقِ الخَضْرَاءِ هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ ٱلحَيَاةِ ٱلعَصْرِيّةِ ؟ وَهَلْ أَنّ ٱلذّهَبَ أَغْلَى مِنَ ٱلتّرَابِ ؟

كَلاّ وَأَلْفُ كَلاّ ... فَٱلْغِنَى لاَ يُنَالُ بِٱلْمُنَى ، وَتَحْقِيقُ ٱلأَمَلِ لاَ يَتَأَتّى إِلاّ بِٱلعَمَلِ ، فَلاَ يُحْصَدُ زَرْعٌ بِغَيْرِ بَذْرٍ، وَلاَ تُجْنَى ثَمَرَةٌ بِغَيْرِ غَرْسٍ

وَلَا يَتَوَفّرُ الذّهَبُ بِغَيْرِ تَعَبٍ.. فَالكدُّ تِرْسٌ" يَقِي سِهَامَ ٱلْبَلَاءِ وَالجدُّ سَيْفٌ" يَقْطَعُ أَعْنَاقَ ٱلشّقَاءِ. وَهَكَذَا بَدَأَتْ حِكَمُ إِيّاسٍ رَغْمَ غِيَابِهِ تَسْطَعُ وَتَتَبَلْوَرُ فِي أذْهَانِهِمْ إِلَى أَنْ اِقْتَنَعُوا بِجَدْوَاهَا فَقَرّرُوا ٱلْعَمَلَ بِمَا جَاءَ فِيهَا.

وَبَدَأُوا فِي إِحْيَاءِ أَرْضِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ فَحَرَثُوهَا وَزَرَعُوهَا وَأَقَامُوا حَوْلَهَا حِزَامًا أَخْضَرَ مِنَ ٱلأَشْجَارِ، وَصَمّمُوا مَشَارِيعَ إِرْوَائِيّةٍ بِهَا، وَأَنْشَأُوا حَدَائِقَ فَرِيدَةً مِنْ نَوْعِهَا رَبّوْا فِيهَا جَمِيعَ أَنْوَاعِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلنّادِرَةِ لِحِمَايَتِهَا مِنَ ٱلانْقِرَاضِ.

وَبِذَلِكَ عَادَتْ ٱلنّضَارَةُ إِلَى قَرْيَتِهِمْ ٱلْجَرِيحَةِ،

وَعَادَتْ ٱلبسْمَةُ إِلَى ٱلقُلُوبِ ، وَٱلثّرْوَةُ ٱلطّائِلَةُ إِلَى ٱلْجُيُوبِ. وَتَيَقّنَ ٱلنّاسُ أنّ رُوحَ ٱلْمَدَنِيّةِ ٱلْحَقّةِ، لاَ تَكْمُنُ فِي ٱلتّسَتّرِ بِٱلقُشُورِ كَتَغْيِيرِ ٱلعَادَاتِ وَٱلأَسْمَاءِ بَلْ بِٱلتّشَبّثِ بِٱللّبِّ وَٱلأَصَالَةِ وَٱلعَمَلِ ٱلْجِدّي ٱلْمُثْمِرِ.

سـلامـة المُـحيط

تَلَوّ ُثُ المُحيـطْ يُضِرّ بِألإنسـان
وَيُفقِدُ الفَضَـاءْ نَقَاءَةَ الفَتّـان
فَكَثْرَةُ الغَازَاتْ مِنْ أخْطَرِ الأفَاتْ
وَبَسْمَةُ الحَـيَاةْ فِي زِينَةِ العُمْرانْ
يَا إخْوَتِي الصّغارْ يَا بَهْجَةَ الأنظَـارْ
تَجَنّبُوا الأخْطَارْ تَحْيَوْنَ في أمَـانْ
لاَ تُتْلِفُوا الأزهارْ لاَ تَحرِقُوا الأشجارْ
وَقَاوِمُوا الأقْـذارْ فِي السّرّ وَالإعْلانْ
فَألطّهْرُ لِلأبْـدانْ دِعَـامَةُ الإيـمَانْ
وَألرّجْسُ وَالأدْرانْ هَمْسٌ مِنَ الشّيطَانْ

محمد الفاضل سليمـان.

A paraître chez le même éditeur:

- La Mesaventure de MAIA	Abdessalem Bouzid et Rabiaa Elloumi
- LEBON ET MECHANT	Abdessalem Bouzid et Rabiaa Elloumi
- LE GEANT- NAIN	Ghoulem Benmessaoud
- L'ARBRE FISTICIER	Med Fadhel Slimane et Benmessaoud Ghoulem

• الغني والصياد	محمد الفاضل سليمان
• رحلة على ورق	محمد الفاضل سليمان
• الاسد والصديقان	محمد الفاضل سليمان
• الجبل المتحرك	محمد الفاضل سليمان
• نصيحة الحمار	محمد الفاضل سليمان

دار البيروني للنشر والتوزيع

MAISON D'EDITION BIRUNI



56, Rue DAG HAMARSKJOLD - SFAX3000

✆04.29.533